تأملات فى معنى التقدم*

بقلم : ألدس هكسلى . تعريب : محمود أمين العالم

يعتبر التغير التطورى تقدمياً ، عند ما يكون متجهاً إلى مضاعفة الاستقلال عن البيئة ، والسيطرة عليها . ومن هذا الاعتبار ، لم يكن تاريخ الحياة على كوكبنا الأرضى — بأى حال من الأحوال — تقدماً مطردا . فلقد ظلت الأشكال البدائية على حالها — دون تغيير تقريباً — منذ فجر ذلك التاريخ حتى يومنا هذا . والإنسان هو المعاصر للكائنات العضوية وحيدة الخلية ، التى تكاد أن تعتمد اعتماداً كلياً على البيئة ؛ إلا أنها — على الرغم من ذلك — قد تعمر لزمن أطول مما تعمره منافسيها من الكائنات الأخرى ، التى تتميز عنها بأنها أكثر قابلية للتقدم ؛ وهذه حقيقة على جانب كبير من الاحتمال . وفضلا عن ذلك ، فإن كثيراً من الكائنات العضوية قد لحقتها تغيرات تقدمية ، وصاحبتها تلك التغيرات لفترة زمنية طويلة ؛ إلا أنها عادت فانتكست إلى حالة جديدة مخصصة من الاعتماد على البيئة ، ومثال ذلك الطفيليات التى تعتمد على أشكال حية تفوقها فى مرتبة التقدم . وأخيراً ، فإنه حتى تلك الأنواع التى كان نصيبها من التغير التقدمى نصيباً وافيا للغاية ، نجدها جميعاً — فى الفترة الراهنة ، فى نهاية المسارات التطورية العمياء — مقضيا عليها بأن تظل على حالها ، بحكم المرتبة العليا من مراتب التخصص التى بلغتها ، فإن تعرضت لطائفة من التغيرات المفاجئة ، اندثرت لعجزها عن أن تكيف نفسها — بأشكالها المتغيرة — للبيئة . وهناك من الأسباب الوجيهة ما يبرر القول بأن جميع الحيوانات الموجودة حالياً ، ليست إلا حفريات حية ، مقدر عليها إما أن تظل على حالها دون كبير تغيير ، أو تندثر إذا ما لحقها التغير . وهكذا نجد التقدم التطورى يكاد أن يكون فى نهاية مراحله ، اللهم إلا فيما يتعلق بالنوع الإنسانى .

---

* يسر مجلة علم النفس أن تنشر ترجمة هذه المقالة للكاتب الكبير ألدس هكسلى وقد سبق نشر الأصل الإنجليزى فى مجلة Vedanta and the West (العدد الأول فى المجلد العاشر ١٩٤٧) كما يسر المجلة أن تقدم جزيل شكرها إلى المركز الدولى للتبادل الأدبى التابع للأونسكو والذى تكرم بإرسال النص الإنجليزى بموافقة المؤلف .

ويتم التقدم البيولوجى — شأنه فى ذلك شأن أى نوع آخر من التغير التطورى — عن طريق تغيرات مفاجئة تنتقل نتائجها — بالوراثة — إلى الأجيال اللاحقة . وقد يكون متصورا أن التقدم الإنسانى يتم بالطريقة نفسها . على أنه لم يكن كذلك ، على الأقل خلال الأزمنة التاريخية . وفضلا عن ذلك ، فإنه لما كانت الغالبية العظمى من التغيرات المفاجئة ليست بمأمونة العواقب ، فبعيد عن الاحتمال أن تؤدى التغيرات المقبلة ، التى تلحق بالجرثومة الحية ، إلى تحسن فى تكوين النوع هذا التكوين الذى هو ثمرة ترق تطورى طويل . ومن هنا كانت الأضرار الجسيمة التى تنشأ عن استخدام طريقة الانقسام الخلوى ، حتى ولو كان ذلك لأغراض سلمية . ومن الممكن استحداث تلك التغيرات المفاجئة استحداثاً صناعياً بالاستفادة بذلك النوع من الإشعاعات المصاحبة للانقسام الخلوى ؛ إلا أن غالبية التغيرات المفاجئة كما رأينا غير مأمونة العاقبة . وإنه لأردع عقاب لغرور الإنسان وصلفه ، أن تكون الثمرة الأخيرة لما يبذله من جهد فى سبيل السيطرة على الطبيعة ، هى استحداث جنس من الأغبياء البله ، ذوى مشافر كمشافر الأرانب وأكف تتميز بأصابع ست . ولو كان من الضرورى تحقيق تقدم وراثى للنوع الإنسانى ، فلن يتم هذا إلا بالطريقة نفسها التى تحسنت بها أجناس من الحيوانات المستأنسة ، وأعنى بها طريقة التنسيل الانتخابى . وسوف يكون من الممكن إمكانا تاما ، الارتفاع بمتوسط مستوى الذكاء الإنسانى إلى مرتبة أعلى بكثير مما هو عليها الآن ؛ ولن يستغرق تحقيق هذا غير بضعة قرون . ولكن هل يمكن إجراء تجربة كبيرة كهذه لتحسين النسل بدون رعاية حكومة دكتاتورية عالمية ؟ وهل تصبح نتائجها — لو أجريت بالفعل — ذات نفع اجتماعى ؟ وتلك أمور ليس فى مقدورنا إلا الاكتفاء بالتأمل فيها . على أنه مما تجدر ملاحظته ، أن الصفات الوراثية لشعوب العالم الحائز على أكبر قسط من الحضارة ، من المحتمل أن تكون فى انحلال وتدهور ومرد هذا إلى أن ضعاف البنية وذوى الاستعدادات العقلية الخائرة ، يعطون فرصة للحياة — فى ظل الملابسات والأحوال الراهنة — أفضل مما كانت تعطى لأمثالهم فى الماضى . والتقدم الإنسانى خلال الأزمنة التاريخية — يختلف عن التقدم البيولوجى فى أنه لا يتوقف على الوراثة وإنما على التقاليد . ولقد كانت هذه التقاليد — عرفية كانت أو مسجلة — بمثابة العربة التى تصبح بها أعمال الأفراد الممتازين ومنتجاتهم ، ميسرة دانية لمعاصريهم وخلفائهم ، وتنتقل بها المكتشفات الجديدة

لجيل من الأجيال إلى الجيل الذى يليه فتصبح من مألوفاته .

واستخدمت كثير من المستويات والأسس لقياس هذا التقدم الإنسانى الذى يقوم على التقاليد . فقد يعد أحياناً استمراراً للتقدم البيولوجى ، أى تقدماً فى السيطرة والاستقلال ، ولو اتخذنا هذا أساساً للقياس ، لكانت الخطوات التى خطتها بعض شعوب النوع الإنسانى فى القرون الأخيرة ، خطوات فساحاً حقاً فى مضمار التقدم . على أن ذلك التقدم ليس بالمدى الواسع الذى يحلو لبعض الناس أن يتصوره فالزلازل ما تزال تقضى على الآلاف منهم ، والأوبئة ما تزال تحصد ملايينهم . والمجاعات الناجمة عن القحط أو الفيضانات أو الحشرات الوبائية أو آفات المزروعات ما تزال تهرس فى بطء ومرارة عشرات الملايين منهم . وفضلا عن ذلك ، فإن ما يسمونه « بالانتصارات على الطبيعة » ، تلك الانتصارات التى قوبلت بحماس بالغ فى يوم من الأيام ، قد عادت فاستحالت بعد سنوات قلائل إلى أمور عادية أضأل بكثير من أن تستحق الحماس ، بل أصبحت تعد من الهزائم ولنتأمل — مثلا — ذلك التقدم الذى تحقق فى أكثر جوانب النشاط الإنسانى أهمية وخطراً ، واعنى به الزراعة . لقد خضعت حقول جديدة للمحراث ، فأدت إلى إنتاج محصولات سمحت بتضخم السكان ، ثم على حين فجاءة . . . استحالت تلك الحقول إلى ركامات من التراب وإلى تلال منهارة مفتتة . لقد استخدمت مواد كيماوية مستحدثة للتحكم فى الحشرات والميكروبات والطحالب ، وبدت كأنما ستؤدى إلى نتائج إعجازية خارقة ، ولكنها لتحقيق هذا تستلزم زمنا يقرب من ذلك الزمن الذى يستلزمه التغير المفاجىء والانتخاب الطبيعى لاستحداث استعدادت قوية صارمة للتغلب على العناصر الفاسدة القديمة . فالمخصبات الصناعية تنتج محصولات وفيرة للغاية ؛ إلا أنها — إلى جانب هذا — تفتك بديدان الأرض التى لاغنى عنها . كما أنها — بحسب رأى طائفة من الإخصائيين تتزايد عددا — تؤدى فى نهاية الأمر إلى الإقلال من خصوبة التربة ، وإلى الإضعاف من الصفات الغذائية للنباتات التى تنمو فيها .وهكذا ، فنحن باسم « الاقتدار والمهارة » نخل من توازن الطبيعة الرهيف . وبإزالتنا لعنصر من عناصر نسقها العضوى الدقيق ، أو بإضافة عنصر جديد إضافة صناعية ، نغنى بمحصولنا الوفير ، إلا أنه لاتكاد تنقضى سنوات قلائل ، حتى تثأر الطبيعة الغضوب لنفسها ثأرا فيه المفاجأة البالغة لنا ، والإحباط الكامل لكافة مساعينا .

ويمكن إطالة القائمة إلى غير حد . إن الكائنات البشرية ليست على القدر من الذكاء الذى يتصورون أنفسهم علية .

إلا أن الأسس التى يقاس بمقتضاها التقدم البيولوجى ، لاتصلح لقياس التقدم انسانى . ذلك لأن التقدم البيولوجى إنما ينطبق فحسب على النوع فى مجموعه ، على حين أنه من المستحيل أن نفكر تفكيرا واقعياً فى النوع الإنسانى بدون اعتبار للفرد إلى جانب اعتبار النوع الذى ينتمى إليه . ومن الميسور تصور وضعاً من الأوضاع يحقق فيه النوع الإنسانى تقدمه ، على حساب الأفراد المكونين له ، معتبرين هؤلاء الأفراد مجرد شخوص . ولو نظرنا إلى مثل هذا التقدم البيولوجى نظرة إنسانية خالصة ، لعددناه انتكاسا وارتداداً إلى مستوى أقل وأدنى من المستوى الإنسانى .

وينبغى لنا عند صياغة الأسس التى نقيس بمقتضاها التقدم الإنسانى ، أن نراعى تلك القيم التى تجعل من الحياة عند الأفراد — سواء أكانوا رجالا أو نساء — تجربة تستحق الممارسة . وهذا فى الواقع ما قام بتحقيقه بالفعل أصحاب النظريات فى التقدم الإنسانى منذ أواخر القرن السابع عشر — عند ما أخذت الفكرة تلاقى ترحيباً واستحسانا — حتى يومنا هذا وفى خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وفقت نظرية الانسجام الأزلى بين التقدم البيولوجى والتقدم الإنسانى . فكل تقدم فى سيطرة الإنسان على البيئة يكون مصحوباً — بالضرورة — بتقدم مماثل فى السعادة الفردية وفى الخلقيات الشخصية والاجتماعية ، وفى مقدار النشاط الإبداعى ونوعه فى مجالى الفن والعلم . واعتبرت هذه الحقيقة بينة بنفسها وواضحة وضوحاً واقعياً . وبعض منا ، ممن تسمح له سنه ، أن يكون قد تلقى العلم فى عهد التقاليد الفيكتورية ، ليذكر (بمزيج من اللهو والكآبة) تلك الصرامة وذلك التزمت الذى كانت تتسم به دعاوى هذه النظرة إلى الحياة . ولقد عبر كل من كونت وباكل وسبنسر عن ذلك بلغة وقورة مجردة . إلا أننا نستطيع أن نعرض لفحوى عقيدتهم عرضاً بسيطاً فى كلمات هى : إن من يلبس القبعات العالية ، ويسافر فى عربات السكة الحديدية ، غير قادر على الإتيان بمثل تلك الأمور التى يأتى بها الأتراك مع الأرمنيين أو تلك التى كان أسلافنا الأروبيون يأتونها مع بعضهم البعض فى الأيام العصيبة القديمة قبل اختراع القطارات البخارية . ونحن اليوم ، بعد حربين عالميتين ، وثلاث ثورات كبرى ، ندرك أنه ليس ثمة علاقة ضرورية بين التقدم

فى الأساليب العملية والتقدم فى الأخلاقيات . فعلى الرغم من أن كثيراً من البدائيين لم يستطيعوا السيطرة على البيئة إلا سيطرة ضئيلة ساذجة ، إلا أنهم قد وجدوا السبيل إلى السعادة والفضيلة والمقدرة على الإبداع والخلق — وإن تكن فى حدود ضيقة ... وعلى العكس من ذلك ، نجد أن أبناء المجتمعات المتحضرة ، غالبا ما يكونون أشقياء ، مقلقلين ، محرومى القدرة على الإبداع ، على حين أنهم يمتلكون الأساليب العملية التى تساعد على السيطرة على البيئة سيطرة لاحد لها . وعلى الرغم من أن الأخلاق الخاصة على جانب لابأس به من الفضيلة ، إلا أن السلوك الجمعى العام يبلغ من الوحشية والفظاظة مبلغاً كبيراً .وأوضح فرق — فى مجال العلاقات الدولية — بين أبناء القرن العشرين وبين الأشوريين الأقدمين ، أن أبناء هذا القرن يمتلكون وسائل أكثر اقتدارا على ارتكاب الفظائع والشرور ، وأنهم أرحب مدى ، فى تحقيق مقدرتهم على التحطيم والطغيان والاستعباد .

والحق ، أن ازدياد مقدرة الإنسان على السيطرة على بيئته ، لا تحدث له إلا تغييراً فحسب فى الأوضاع التى يحاول فيها الأفراد والجماعات أن يدفعوا بالتقدم الإنسانى إلى الأمام فى مجالات الإبداع والأخلاق والسعادة ، بدون الاستعانة بالوسائل العملية المصطنعة . ومن ثم ، فالعامل الذى يشتغل فى إحدى المصانع القائمة فى مدينة من المدن ، يمكن أن ينتمى — من الناحية البيولوجية — إلى مجموعة أكثر تقدماً من تلك التى ينتمى إليها المزارع . غير أن ذلك لن ييسر له أسباب السعادة والفضيلة والمقدرة على الإبداع . فالمزارع يواجه طائفة معينة من العقبات والمصاعب ، ويواجه العامل الصناعى طائفة أخرى منها . والتقدم فى الأساليب العملية لايزيل العقبات ولايمحو المصاعب ، إنما يغير فحسب من طبيعتها . ويصدق هذا كذلك على الحالات التى تؤثر فيها الأساليب العملية تأثيراً مباشراً على حيوات الأفراد وشخصياتهم . فالاهتمام بالصحة — مثلا — قد أنقص — إلى حد كبير — من الإصابة بالأمراض الوبائية ، وخفض من نسبة وفيات الأطفال ، ورفع من مستوى متوسط الأعمار . وقد يبدو — للوهلة الأولى — هذا الجانب من التقدم فى الأساليب العملية فى الوقت نفسه ، جانبا من التقدم الإنسانى ، إلا أننا عندما ننظر إلى الأمر بطريقة أشد إمعاناً ، يتكشف لنا أن كل ما حدث لايعدو أن يكون تغييراً فى الأوضاع والحالات التى يتحقق فيها التقدم الإنسانى . ومن أعراض هذا التغيير ، اعتبار طب الشيخوخة — فى هذه الأيام — فرعاً مهما من فروع

الطب ، ومنح معاشات للمسنين ، وتبدل ميزان السكان فى البلاد ذات المستوى المنخفض فى المواليد ، بارتفاع عدد المسنين فيها . وبفضل الاهتمام بالصحة أصبح المسنون بسبيل أن يكونوا أقلية اجتماعية لها شأنها . كما بدت مشكلات التقدم الإنسانى فى السعادة والفضيلة والإبداع ، أمام هذه الأقلية المهمة ، مشكلات عويصة الدلالة لدرجة كبيرة . إلا أن تقدم الأساليب العملية — حتى فى المجال الطبى ليس هو التقدم الإنسانى . إذ على الرغم من أننا نستطيع القول ببساطة ويسر إن إزالة الملاريا — مثلا — عمل طيب خير ، غير أن مجرد تحسين صحة ضحايا هذا المرض ، لن يؤدى فى ذاته إلا إلى مجرد تغيير الأوضاع والملابسات التى يتمرس بها التقدم الإنسانى . فأصحاء الأبدان ليسوا بالضرورة مبدعين أو فضلاء . أو حتى سعداء ، وإنما لديهم فحسب فرصة أفضل مما لدى المرضى لكى يكونوا كذلك .

وتقدم الأساليب العملية ، يضاعف من سيطرة الإنسان على بيئته ؛ ومضاعفة السيطرة أمر وراثى ، أى أن وسائلها تنتقل بالتقاليد من جيل إلى جيل . إلا أن هذا التقدم ، الشبيه بالتقدم البيولوجى — كما رأينا من قبل — لايحقق بنفسه تقدماً إنسانياً على وجه خاص . وإنما على الإنسان — فى داخل هذه الأوضاع التى تتغير باستمرار نتيجة لتقدم الأساليب العملية — أن يجهد كى يحقق التقدم الإنسانى بوسائل ليست لها تلك الطبيعة المادية العملية ، وأعنى بتلك الوسائل : السياسة والتربية . فالسياسة مختصة بتنظيم العلاقات التشريعية والاقتصادية داخل مجتمع معين ، وبين هذا المجتمع والمجتمعات الأخرى . والتربية — بشرط ألا تكون مجرد إعداد مهنى : تهدف إلى التوفيق بين الفرد ونفسه ، وبينه وبين رفاقه ، وبينه وبين المجتمع فى مجموعه العام ، وبينه وبين الطبيعة الذى يعد هو ومجتمعه جزءا منها ، وبينه وبين « الروح » الكامنة العليا التى تحقق الطبيعة نفسها فيها .

ويمكن التعبير عن الفرق بين تنظيم اقتصادى سياسى صالح ، وبين تنظيم آخر غير صالح ، تعبيراً بسيطاً هكذا : التنظيم الصالح يقلل من مقدار دعاوى الشر وإغواءات السوء ، تلك الدعاوى والإغواءات الخطرة التى يتعرض لها الأفراد والجماعات ؛ على حين أن التنظيم غير الصالح يضاعف من مقدار تلك الإغواءات. ومن ثم فالدكتاتورية — مهما كانت تبطن من نوايا خيرة طيبة — لايمكن أن تكون صالحة أبدا لأنها تدفع بأقلية إلى التعلق بشهوة التملك والسيطرة على حين تقضى على الأغلبية بأن تتقبل — فى طواعية سلبية وذلة — ماتصدره إليها الطبقة العليا من أوامر

وأحكام . وإذا أردنا أن نتحقق من قيمة أى نظام — سواء أكان نظاماً قائماً بالفعل أو نظاماً فكرياً مثاليا ، وسواء أكان سياسيا أو اقتصادياً أو دينياً — فينبغى لنا أن نبدأ بهذه الأسئلة البسيطة نفسها : أى الدفوع والإغواءات يتذرع بها ؟ أو هل من المحتمل أن نجد الخلاص على يديه ؟ فإذا كان يدفع بالأفراد والجماعات فى قوة وإصرار إلى التعلق بمشاعر مرذولة ، كالفخر والخيلاء والجشع والقسوة وشهوة التملك والسيطرة ، وإذا كان يطبع شعبه بطابع الادعاء والضعة والطاعة العمياء . . . إذا كان هذا هو شأن ذلك النظام ، فلنحكم عليه بأنه نظام فاسد غير مرغوب فيه . وعلى العكس من ذلك ، لو كان النظام يساهم فى نبذ القوة ، ولا يشجع على الجشع ، ولو كانت أساليبه لاتدع متسعاً للقسوة والنفج والتفاخر ، ولاتدفع إلى الطاعة العمياء ، بل تمجد حرية التفكير والتعاون القائم على المسئولية . . . . لو كان هذا هو شأن ذلك النظام ، فلنحكم عليه بأنه نظام صالح مرغوب فيه .

ولقد فشلت حتى اليوم غالبية الثورات السياسية والاقتصادية فى تحقيق نتائجها الطيبة المنشودة ، وإن تكن قد اكتسحت أنظمة ومؤسسات لم تعد مقبولة ولامحتملة ، لأنها كانت تدفع بالأفراد والجماعات إلى الخضوع لسيطرة إغواءات خطرة . إلا أن الأنظمة والمؤسسات الثورية الجديدة ، قد دفعت كذلك بأفراد وجماعات أخرى إلى إغواءات ودعاو إن لم تكن هى الإغواءات والدعاوى القديمة فليست أقل خطراً منها . فالقوة — على سبيل المثال — ينبغى أن تنبذ جانباً ، سواء أكان الذين يتذرعون بها أغنياء للدفاع عن ثرواتهم ، أو سياسيون وحكام إداريون للدفاع عن نظام حكومى أو لاهوتى معين .

والانقلابات السياسية التى تحدث على نطاق واسع ، إنها تحدث أولا بدافع الحرص على مصلحة فرد أو حزب أو طبقة ؛ إلا أن الرغبة الخالصة لتحقيق التقدم الإنسانى خاصة ، لايكون لها إلا المحل الثانى بين الدوافع على تلك الانقلابات . فكيف يمكن لمثل تلك الانقلابات أن تحقق المرجو منها ؟ وإلى أى مدى يمكن تحقيق تقدم مطرد فى السعادة والفضيلة والمقدرة على الإبداع ، باستصدار قرار برلمانى ؟ على أنه ليس من الحكمة التحدث عن المقدرة على الإبداع فى صورتها العليا ؛ وإلا واجهنا هذا السر العميق : لماذا تظهر طائفة كبيرة من العباقرة فى عهد واحد من العهود ، على حين تخلو عهود أخرى منهم ؟ . إلا أن الأمر يختلف فيما يتعلق بالمقدرة على الإبداع فى صورتها العادية . كما تبدو فى فنون الحياة العادية وحرفها . ومن البين الواضح

أن الحرف والفنون لاتزدهر فى مجتمع تصنع فيه كافة الحاجيات المنزلية الضرورية — آليا — فى مصانع على جانب عظيم من التنظيم . فاليسر والراحة التى نستمتع بهما نتيجة للإنتاج الجمعى الكبير ، ندفع ثمنهما بانتقاص مقدرتنا على الإبداع — فى مستوياته الشعبية العادية — .

ومن المتعذر قياس الفضيلة والسعادة . وكل ما يمكن قوله هو أن تنظيمات سياسية واقتصادية معينة ، فى مقدورها أن تمحو إغواءات للشر معينة ، وأسباباً خاصة للفاقة والعوز ومن ثم ، فرجل الشرطة النشط ، فى مكنته أن يقلل من عدد الجرائم العدوانية العنيفة ؛ وتنظيم توزيع الطعام ، يستطيع أن يخفف من حدة الشقاء الناجم عن الجوع . كما يمكن للحكومة الرشيدة أن تهون من وطأة الشقاء المتسبب عن البطالة باتخاذ تشريع ملائم . على أنه مما يؤسف له ، أن التأمين الاقتصادى فى المجتمع الصناعى ، لم يتحقق — حتى الآن — إلا على حساب الحرية الشخصية . فالشقاء الناجم عن القلق وفقدان الشعور بالاستقرار ، من الممكن دفعه ، ولكن بشقاء آخر هو شقاء الالتزام والتبعية التى انحطت فى بعض البلاد إلى مرتبة العبودية . نحن فى عالم لايستطيع فرد فيه ، أن يحصل على أى شىء بدون مقابل . فالمميزات التى تتاح لنا بالعمل فى مجال معين ، ندفع ثمنها خسائر وأضراراً فى مجالات أخرى . إن القدر يبيع دائماً ، ولكنه لايعطى أبداً . وكل مافى وسعنا عمله هو الحصول على أحسن صفقة ممكنة ، ولو فضلنا أن نستخدم عقولنا وإرادتنا الخيرة بدلا من دهائنا الخسيس ، وشهوة السيطرة التى تتملكنا ، لاستطعنا أن نقيم أنظمة سياسية تمحو كثيراً من الإغواءات الخطرة التى تسول لنا الشر ، وتمحق أسباباً كثيرة من أسباب الشقاء ، بدون أن نخلق — خلال ذلك — متاعب جديدة وعقبات مستحدثة ، ليست أقل هوادة من تلك التى تخلصنا منها .

على أنه ينبغى ألا يغيب عن بالنا ، أننا باتخاذنا وسائل سياسية لإزالة بعض الإغواءات الخطرة الدافعة إلى الشر ، وبعض الأسباب الداعية إلى الشقاء ، لن نضمن بهذا وحده تقدما عاما فى الفضيلة والسعادة . فنحن نرى فى ظل التشريع السياسى والاقتصادى القائم ، أقلية ممن تتمتع بحياة موفقة ، آمنة ، لاتشوبها شائبة اضطراب أو قلق ؛ ولكن كم بين تلك الفئة المحظوظة ، من يحيا حياة بالغة الشقاء ، وكم بينها ممن تدفعه إغواءات الشر دفعاً إراديا أو غير إرادى . إن الفضيلة والسعادة لاتكاد تتوقف — إلى حد كبير — على الأحوال والملابسات الخارجية . حقاً ،

إن طفلا يتضور جوعاً ، من المحال أن يكون سعيداً . كما أنه ليس من المحتمل لطفل نشأ بين مجرمين أن يكون فاضلا خيراً . إلا أن هذه حالات متطرفة . والمجموعات الكبرى من الناس تحيا فى حالة توسط بين الأطراف البعيدة ، بين الطهارة والفجور ، بين الغنى والإملاق . ويمكن للأفراد — على شريطة بقائهم على تلك الحالة من التوسط — أن تلحق بثروتهم تغيرات كبيرة ، دون أن تصيبهم تغيرات مماثلة فى الرذيلة أو الفضيلة ، فى الشقاء أو السعادة . فالحياة الخاصة تكاد أن تكون بمعزل تام عن الحياة العامة ، بل تكاد أن تكون مستقلة — من جانب معين — عن الملابسات والحالات الخاصة . وهناك أحوال معينة من السعادة ، بل وأحوال معينة كذلك من الفضيلة ، تعد نتيجة للمزاج والاستعداد الشخصى . إذ يوجد بين الرجال والنساء من يمكن القول عنهم — كما قيل عنهم من قبل — مثل القديس بونافنتورا[1] — بأنهم ولدوا « بدون الخطيئة الأولى » . ويوجد بين الأطفال من يعدون غيريين بالوراثة ، مثل بيبو ذلك الطفل الصغير الطيب ، الذى أصبح — عندما ماكبر — القديس فيليب النيرى[2] . وتماثل هذه الفضائل العفوية الموروثة تلك الفرحة التى لاتكتسب بجهد ولا معاناة ، وتلك الغبطة والسعادة التى ترف ولايكاد أن يكون لها داع أو دافع .

بطـاتٌ أربع فى نهـر
تحبو للشط المعشوشبْ
وسمـاء باسمـة الثغـر
تتوسط غـيما متوثب
أشياء ساذجة . . . دوْما
لكنْ إن خطرت لى يوما
بالدمع يهدهدها شـعرى
وأظل أسبحها . . . عمرى

تلك هى الخيوط التى يتألف منها جانب كبير من نسيج حياتنا . وهى متحققة فى جميع العهود والأزمان . وهى ميسرة دانية فى جميع الملابسات ، الخاصة والعامة

(١) القديس بونافنتورا (١٢٢١ — ١٢٧٤) راهب إيطالى درس فى جامعة باريس من ١٢٤٨ — ١٢٥٥ . له كتب فلسفية ولاهوتية وصوفية ، أوغسطين فيها مرجعه الأكبر .

(٢) St. Philip of Neri ١٥١٥ — ١٥٩٥ — من رجال الكنيسة الإيطالية — ولد فى فلورنسه واشتهر بمحبة المرضى والفقراء ومساعدتهم حتى سمى باسم « رسول روما »

على السواء . وإن سعادة من هذا القبيل لمحال أن تزيد أو تنقص بمجرد قرار برلمانى. بل تبقى كما هى ، مهما كانت تصرفاتنا الخاصة أو تصرفات هؤلاء الذين نخالطهم فى الحياة ، ذلك لأنها تستند إلى استعدادنا الغريزى للاستجابة لبعض العناصر الثابتة الباقية فى نظام الطبيعة .

وتتوقف تلك المقدرة على الاستجابة — إلى حد كبير — على السن ، إلى جانب توقفها على التكوين الخاص للفرد . فالمراهق عندما يتكشف له العالم جديدا ، يكون سعيدا ، وتكون سعادته ذات حدة مشبوبة من المحال استعادتها فى فترات النضوج . وتؤدى بنا هذه النقطة إلى نقطة أخرى على غاية من الأهمية ، هى أن حياة الإنسان ليست بطبيعتها تقدمية ؛ ولكنها تصاعد حتى تبلغ ذروة معينة ، ثم تبقى لفترة فوق مستوى من النضوج ، ثم تأخذ فى الاضمحلال خلال فترات الشيخوخة حتى تبلغ إلى العجز فالموت . وإن آداب العالم لتطفح بدموع الشكوى لاضمحلال الحياة — ذلك الاضمحلال الذى لا يمكن دفعه — ولزوال رؤى السعادة التى طالما كانت ترف فى فترات الشباب . ومن العبث التحدث عن مسار التقدم — سواء أكان بيولوجيا أو إنسانيا — مع رجل مسن ، جاوز سنه سن معاصريه ، واضمحلت قواه الذهنية حتى ارتدت به إلى مرحلة الطفولة الثانية . إذ هو لايستطيع — فى قرارة نفسه — إلا أن يستشعر فحسب تجربة يتعارض مسارها ويختلف عن مسار التقدم سواء أكان تقدما نحو سيطرة أكبر على البيئة ، أو نحو سعادة أغمر وفضيلة أسمى ومقدرة على الإبداع أكثر تفوقاً . فمى أى عهد من العهود — مهما قال عنه المؤرخون فى المستقبل بأنه كان عهدا تقدميا — يستشعر ثلث أفراده أو ما يقرب من ذلك ، تأخرا وتراجعاً بيولوجيا وإنسانيا يصاحب تقدمهم فى السن . فالشيخوخة فى عهد بركليس أو عهد لورنزو [1] العظيم كانت لها ذات المسحة الحزينة ، ولها ذات الشعور بالتأخر والاضمحلال ، التى للشيخوخة فى عهد عبدالحميد وعهد شلبريك .[2] حقاً ، إن المسنين يكونون فى حالة تجعلهم يؤكدون التقدم فى مجال

---

(١) Lorenzo : من أسرة ميدتشى الايطالية ، كان ذا اتجاهات سياسية دبموقراطية ، وكان صالحا حكيما فشملت البلاد على عهده موجة من التقدم والازدهار ، وكان تأثيره كبيراً على كل إيطاليا ، وكان قصره بمثابة أكاديمية للعلماء ومشهورى الرجال — توفى سنة ١٤٩٢

(٢) Chilperic :— يقصد الكاتب هنا ولا شك شلبريك الأول من ملوك فرنسا ، مات سنة ٥٨٤ مقتولا بعد عهد طويل من الحروب والمنازعات ، وكان طاغية جبارا .

الفضيلة . ولكن هذا راجع إلى أن كثيراً من الرذائل والشرور تفقد جاذبيتها وإغراءها فى أخريات الحياة . إلا أنه من العسير عليهم أن يؤكدوا مسار التقدم فى مجالات السعادة والمقدرة على الإبداع . ولن يتأكد مثل هذا التقدم فى عصر من العصور إلا من جانب طائفة من الأفراد ، فى اقتبال من العمر وعلى مستوى من النضوج ، يستشعرون التقدم فى صميم حياتهم الخاصة .

وعند ما يصف المؤرخون عصراً من العصور بأنه تقدمى . لا يحملون أنفسهم مشقة بأن يذكروا لنا — على وجه الدقة والتحديد — هؤلاء الذين استشعروا فى أنفسهم هذا التقدم ولا كيف استشعر هذا التقدم . فمثلا ، اتفق كافة المؤرخين المعاصرين على أن القرن الثالث عشر ، كان عصر تقدم ، على أن الأخلاقيين الذين عاشوا بالفعل فى القرن الثالث عشر ، أجمعوا على الشكوى من انحطاط عصرهم وانحلاله . وعندما نطالع وثيقة مثل مدونة سالمبين الأخ التاريخية تأخذنا الدهشة كل مأخذ . ونساءل عن مدى اتفاق النتائج التى نستخلصها من طهارة القديس فرنسيس ، ومن عمارة الكاتدرائيات الغوطية ، ومن فلسفة القديس توما ، ومن شعر دانتى ، مع ما كانت عليه حياة غالبية السكان فى ذلك العصر من وحشية وخسة . لو كان العصر عصر تقدم بحق ، فمن كان يستشعر ذلك التقدم ؟ ولو أن غالبية السكان فى ذلك العصر قد فشلوا فى استشعار أى شىء ذى طبيعة تقدمية . . . فهل هناك ثمة ما يبرر القول بأن العصر كان عصر تقدم ؟ أم أن عصرا من العصور يكون عصر تقدم لا لشىء إلا لأن المؤرخين الذين جاءوا بعده يعتبرونه كذلك ، مستندين إلى مستويات خاصة من ابتكاراتهم ؟

لقد اقتصر التقدم البيولوجي — فى مدى تاريخ التغير التطورى — على المستويات العليا من الكائنات النباتية والحيوانية . وبالمثل . يمكن أن يكون التقدم الإنسانى ميزة لم يختص بها إلا نفر من المحظوظين ذوى المواهب الخارقة . وعلى هذا ، فبينما كانت الدراما فى عهد اليصابات فى تقدم إبتداء من كيد [1] حتى شكسبير ، كان الجمهور الغفير من الفلاحين المملقين ، يكابدون — فى صورة بالغة — من سوء التغذية ، وكانت الإصابات بكساح الأطفال وبداء الاسقربوط فى ازدياد

(١) Thomas Kidd ١٥٥٤ — ١٥٩٤ : من أهم كتاب الدراما فى عصر ظل مغموراً حتى أواخر القرن التاسع عشر ، اهتم بدراسته علماء الألمان خاصة واعتبروا مسرحيته « المأساة الأسبانية » أهم مسرحيات عصر أليصابات وحاولوا تكشف تأثيره المباشر فى شكسبير عامة ومسرحية هاملت خاصة .

متصل . وبتعبير آخر ، كان هناك تقدم إنسانى لنفر ضئيل من الناس فى مجال معين ، وكان هناك كذلك تأخر وتراجع بيولوجى وإنسانى فى مجالات أخرى بين عدد غفير من المحرومين المعوزين . إلا أننا اليوم نعد عصر أليصابات عصر تقدم . إن تجربة التقدم — سواء فى الأساليب العملية أو فى المجال الإنسانى — تجربة من النادر أن تستديم وتبقى . فللكائنات البشرية مقدرة بالغة على أن تسلم بالأشياء تسليما أعمى . ففى أشهر معدودات ، بل فى بضعة أيام ، تستحيل الاكتشافات الجديدة ، والمميزات السياسية أو الاقتصادية المستحدثة ، إلى أجزاء من النظام القائم للأشياء . كل سماء منشودة ، تستحيل إلى أرض موطوءة ، عندما نصل إليها. وإننا لا نقضى أيامنا فى المقارنة بين السعادة الراهنة والشقاء القديم ؛ وإنما نقبلها باعتبارها حقاً من حقوقنا ، ويتملكنا الحنق الأرعن لو حرمنا منها ، ولو حرمانا موقوتا. فنحن لانستشعر تجربة التقدم باستمرار ؛ ذلك لأن عقولنا تبقى على حالها دون تغيير ؛ إلا أننا نستشعر ذلك التقدم فى فترات متقطعة ، عند المنعطفات الأولى من أى تقدم جديد .

ولننتقل الآن من السياسة باعتبارها وسيلة للتقدم الإنسانى ، إلى التربية . وموضوع التربية يكاد أن يكون فضفاضاً لا حدود له . ولكنى — لحسن الحظ — أجد فى إحدى وجوهه فحسب ما يتفق وهذا السياق الخاص . ذلك لأن السعادة والفضيلة والمقدرة على الإبداع — من حيث أنها لا تستند إلى المزاج الشخصى أو المصادفة السعيدة — ليست جميعاً إلا ثماراً لفلسفة الفرد فى الحياة . فبحسب معتقداتنا ، تكون حياتنا . وتتوقف معتقداتنا على ما تعلمناه من آبائنا ومدرسينا وما تلقفناه عن الكتب والصحف التى نقرؤها ، ومن التقاليد — مسجلة كانت أو عرفية — ومن النظم الاقتصادية والسياسية والدينية التى تنتمى إليها . ولوكان من الضرورى تحقيق تقدم إنسانى ، فلن يكون ذلك إلا بتوكيد السعادة والفضيلة والمقدرة على الإبداع ، توكيدا يقوم به الأفراد فى الأجيال المتعاقبة على الرغم من الحالات والملابسات التى قد تكون عقبة تقف دونهم ، مثابرين على ذلك طوال فترة حياتهم ، تلك الحياة التى ليست تقدمية بطبيعتها . وهناك فلسفات أساسية للحياة يمكن أن تفرض فرضاً على فرد من الأفراد ، أو يمكن أن يختارها ليجعلها خاصة به ؛ وبعض هذه الفلسفات ملائمة وصالحة وتتفق مع توكيد السعادة والفضيلة والمقدرة على الإبداع ، وبعضها لايتفق معها فى صراحة ووضوح .

فمذهب السعادة الشخصية — مثلا — فلسفة غير صالحة ، ذلك لأن طبيعتها وطبيعة العالم المحيط بنا ، لها طابع يجعل من المستحيل تحقيق السعادة ، لو اتخذناها هى نفسها هدفا لنا . والفلسفة الكامنة فى فن الإعلان الحديث (وهو المصدر الذى يستقى منه الآن ملايين البشر نظراتهم فى الحياة) صورة خاصة من مذهب السعادة الشخصية . ويعلمنا أصحاب فن الإعلان أن السعادة ينبغى أن تعد غاية فى نفسها ، وأنه لا سعادة إلا بما يأتى لنا من الخارج ، ولن تتحقق إلا بحصولنا على إحدى منتجات الأساليب الصناعية الراقية .وهكذا نجد أن مذهب السعادة الشخصية يتفق مع عقيدة القرن التاسع عشر فى أن التقدم فى الأساليب العملية يتماشى جنباً إلى جنب تماشياً ضرورياً مع التقدم الإنسانى . فلو كانت جوارب « الرايون » تجعل منك إنسانا سعيداً ، فإن سعادتك ستتضاعف بجوارب « النيلون » التى هى ثمرة تقدم أوسع فى الأساليب العملية . ومما يؤسف له ، أن العقل الإنسانى ، لا يستجيب للأشياء على هذا النحو . ومن ثم ، فهؤلاء الذين يتقبلون — بوعى أو بدون وعى — تلك الفلسفة التى يروج لها أصحاب فن الإعلان ، سوف يجدون مشقة حتى فى توكيد السعادة . . . ولندع الخير والمقدرة على الإبداع جانباً .

وتعد الفلسفات السياسية التى اعتنقها ملايين من معاصرينا بدلا من دياناتهم العتيقة ، أكثر صلاحية وملائمة من تلك الفلسفة . فنحن نجد فى هذه الفلسفات السياسية أن القومية المتطرفة قد ارتبطت بنظرية فى الدولة وبمذهب فى الاقتصاد . وهؤلاء الذين قبلوا تلك الفلسفات — أحراراً مختارين أو تحت تأثير تنشئتهم منذ طفولتهم على دعاية متوالية لاتنقطع — قد استلهموا — فى حالات كثيرة — نمطا من الحياة يتسم بالولاء والإخلاص للقضية القومية والأيديولوجية . وهم يحققون نوعاً من السعادة ، ونوعاً من الفضيلة . ومما يؤسف له ، أن المرتبة العليا من الأخلاقية الشخصية مرتبطة — فى غالبية الأحوال — بأكثر صور الفساد الجمعى العام ، شناعة وشرا . ذلك لأن « الأمة » أو « الحزب » ليس فى وسع من يقوم على عبادتها إلا أن يحقق لها أى شىء — مهما كان كريهاً مقيتاً — يبدو أنه سيدفع بالقضية المقدسة خطوات إلى الأمام . وحتى السعادة التى تتأتى عن خدمة قضية أكبر من الفرد ، عرضة — فى هذه الحالة — لأن تكون مزعزعة — لا يؤمن عليها . ذلك لأنه باتخاذ وسائل مسفة لتحقيق غاية جليلة ، لن يكون الهدف الذى نصل إليه

بالفعل هو نفسه تلك الغاية الجليلة التى استهدفناها أولا ، بل لن يكون إلا ثمرة من ثمار استخدامنا لتلك الوسائل المسفة ؛ وتلك نتيجة لايمكن تلافيها أو تجنبها . ولهذا كانت السعادة التى تأتى من جراء بذل النفس وحريتها لمثل تلك القضايا السياسية ، سعادة مآلها الضرورى هو الفتور . وينشأ هذا الفتور من خيبة الأمل التى ستنمو شيئاً فشيئا وتتضخم من جراء الفشل الدائم فى تحقيق المثل الأعلى المنشود .

ونجد فى الديانات التنسكية — مثل بعض أشكال الديانة المسيحية والديانة الهندوسية والبوذية — أن المبدأ الذى يهب له العابد نفسه ، مبدأ خارق على الطبيعة ؛ ولايتحقق المثل الأعلى للعابد ، تحقيقاً كاملا ، « فى هذا العالم » ؛ ولهذا نجد أن لاتباع تلك الديانات فرصة لتوكيد سعادتهم أكبر من تلك الفرصة التى لأشياع الديانات السياسية . كما أنهم أقل منهم تمسكاً بالتبذل الأخلاقى الشعبى ، ما لم تجهد المذاهب المعادية لهم للسيطرة عليهم والاستعلاء فوقهم .

والرواقية مذهب سبق وجوده ، وجود الرواقيين أنفسهم ، بل وظل باقيا بعدهم . فالرواقية هى الاسم الذى نخلعه على محاولات الناس لتحقيق الاستقلال عن البيئة والسيطرة عليها ، متذرعين إلى ذلك بوسائل سيكلوجية محضة ، دون أن يلجأوا إلى وسيلة التغير الفجائى أو الانتخاب ، أو يتخذوا — فى الحدود الإنسانية — وسائل صناعية عملية تعد أكثر فاعلية ونفاذا .

والرواقية تستند استناداً أساسياً إلى الإرادة السطحية .. إلا أن هذه الإرادة السطحية — مهما كانت قوية وعلى جانب كبير من الدربة — لاتستطيع أن تقاوم الملابسات والأحوال ولا أن تكون ندا لها . ولهذا كله ، نجد أن الرواقى الخالص لايحقق مثله الأعلى فى السعادة تحقيقاً كاملا ، ذلك المثل الأعلى الذى هو استقلال وفضيلة عن طريق التخلى الإرادى .

ولكن الأهداف الرواقية قد تحققت تحقيقاً كاملا ؛ لم يحققها الرواقيون ، وإنما حققها هؤلاء الذين بسطوا نفوسهم — بالتأمل والعبادة — أمام « العناية الإلهيه » ، أمام « اللوغوس »(١) ، أمام « التاو(٢) » أمام « الأثمان(٣) البراهمية » أمام « النور

---

(١) Logos : اصطلاح يعنى « العقل » أو أحد مظاهر العقل أو النظام فى الكلمات والأشياء ويستعمل هذا اللفظ فى الفلسفة مشيراً إلى عقل كونى cosmic ينظم العالم وأول من استعمله بهذا المعنى هرقليطس ثم الرواقيون وكذلك يلعب دوراً هاماً فى مذهب أفلوطين وفى الفلسفة المسيحية .

(٢) TAO : يقصد بهذه الكلمة فى الأصل عند الصينيين الانقلاب أو حركة السموات وتأثيرها =

الباطنى . » وإن التقدم الإنسانى — على وجه خاص — فى السعادة والفضيلة والقدرة على الإبداع ، والتقدم السيكلوجى المساوق للتقدم البيولوجى فى الاستقلال والسيطرة ، لتتحقق جميعاً خير ما تتحقق ، بالسعى الجاهد وراء « النهاية الأخيرة » للإنسان . إننا بنشدان ما هو أبدى وبالطموح إلى تحقيقه ، يمكننا أن نحصل من حياتنا فى الزمان على أجل وأفضل مافيها ، والأجل والأفضل ليس غير تقدم متصل .

ألدس هكسلى

N.D.L.R.

L'article précédent est la traduction arabe par Mahmoud Amine El-'Alem de l'article anglais de M. Aldous Huxley: "*Reflections on Progress*", publié dans "Vedanta and the West", Vol. X; No. 1, Janvier-Février 1947.

Le Journal Egyptien de Psychologie adresse ses meilleurs ramerciements au *Centre International d'Echanges littéraires* de l'UNESCO qui a eu l'obligeance de lui adresser le texte de l'article.

= على الظواهر الأرضية ، ثم اعتبر التاو قطباً مقدساً يدور حوله كل شىء ثم استحالت إلى معنى الطاقة الكونية الكامنة وراء نظام الطبيعة المنظور وأصبحت بمثابة ما هو أزلى ، أبدى ، دائم غير متغير الخ . . . .

(٣) Atman : الروح البراهمية .

مجلة عـــلم النفس

تفتتح عامها الخامس بعدد خاص ممتاز فى

علم النفس والحرب والشئون العسكرية

يصدر فى منتصف يونيو سنة ١٩٤٩

وسيعالج هذا العدد موضوعات حيوية تهم كل مثقف :

علم النفس فى خدمة الجيش — سيكولوجية الخوف — الشائعات — الروح المعنوية — سيكولوجية التبرير — سيكولوجية الأسير — الأمراض النفسية فى الميادين الحربية — أحدث الاختبارات فى تشخيص الأمراض النفسية والعقلية — الشروط النفسية لتحقيق السلم — فن الزعامة .

اضمن قراءة هذا العدد الخاص بإرسال اشتراكك السنوى فى مجلة علم النفس وقدره ٥٠ خمسون قرشا فى مصر والسودان و ١٢ شلن ونصف فى الخارج إلى إدارة المجلة ٤٨ شارع روض الفرج — شبرا — مصر

وكيل المجلة فى العراق : المكتبة العصرية لصاحبها محمود وحلمى — بغداد .
وفى سوريا : السيد سعيد نجار — حماه .